صداقة تدين التاريخ

« ألا إن لنا قلوبا »

للأستاذ أمين الخولي

— ١ —

في واد مشرق السماء، جهم الأديم، تضطجع بين الجبال، على سريف الصحراء، تلك العذراء المنعة « مكة »؛ تكاد تنال باحدى يديها مياه « القلزم »؛ حين تنسم عن بعد نسيم الشرق بعراقه وفرسه، تلتفت يمنة الى بلاد العرب السعيدة، بدفء شتائها وأسباب حياتها؛ وترنو يسرة الى مشارف الشام بوارف ظلالها، وفتون حضارتها

في واد غير ذي زرع حول البيت المحرم، منذ بضعة عشر قرناً كانت تخفق القلوب وجلة، وتختلج النفوس متطلعة، ويشيع في أولى الألباب تشوف وتلهف، استحال اضطراباً اجتماعياً، وثوراناً روحياً، على قديم لا يرضى العقل، ولا يسعد القلب، حتى هب نشاط أناسي منهم الى انتجاع ذلك الجديد بالرحلة اليه، والنقلة في سبيله، مثلما تلتمس أسباب الرفاهة الحيوية، من أعراض التجارة وحطام الدنيا

— ٢ —

في ذلك العهد الحائر، كان سيدان من سادات قريش، قد اكتملت لهما بسطة من الجسم والحلم، وظفرا بوفر من الحسب والكرم، حين سعدا بأخلاق تشابهت في السمو، حتى تلاقت فيهما نعوت الواصفين: لا يعيشان لأنفسهما، ولا يفكران في ذواتهما. انما هم أحدهم ظلم يرفع، وحاجة تدفع، ومعونة على الدهر، أو اضطلاع باصلاح اذا كثر الشر

كانا في سن متقاربة، لا تقول هما لدان، ولكنهما متقاربان، سبق أكبرهما صاحبه الى هذه الدنيا بعامين وشيء من الأيام

كانا يضربان في حياة تشابهت ودياناها، وإن تخالفت ألوانها، الكبير تاجر يصرف الدراهم والدنانير، حين كان الأكبر يرعى الشاء ويدبر البعير، على هينة في ذلك وقلة عناية

توثقت بينهما صداقة عريقة، حين كان الأكبر يشارف الأربعين، قد بقى له من عدها عام، والكبير يبعد عنها بخطوات ثلاث وعدة أيام؛ فلهما الشباب المكتمل، والعقل المتزن. وما كانت بينهما هذه الصداقة الا عن تآلف نفس، وتمازج روح؛ والا ففيم يتقاربان، والكبير يعرف من سبل الكسب وطرق الثراء، ما وراء أفق البادية الجديب، ويختلف الى اليمن والشام يثرى ويربح، على حين ينصرف الأكبر عن المال والنشب؛ قليل الكد في سبيلهما، زاهدا في أسبابهما؛ يعتزل الناس فريداً ويتحنث وحيداً، يسائل الشمس والقمر، ويستنطق الريح والصخر، أي شيء هذا؟ وفيم العناء؟ والام المسير؟ وأين الثواء؟ هذه حالهما حين ربطت بينهما تلك الصداقة؛ فما إن نشك في أن هذا الصديق كان يشاطر صديقه هذا التساؤل، ويبادله ذلك التفهم؛ وان وقف في ذلك دونه، لا يتكشف له من الآفاق ما يستشرف له الأكبر، ويطالعه في قوة روح آلف لهذا وأقدر

— ٣ —

تعارفا وتآلفا؛ وما هو الا عام حتى ظهر النور الأنضر، وجاء الفتح الأكبر.. وأسر الصديق الى صديقه أنه قد همس في أذنه، وألقى في روعه، وتفتحت له جنبات السماء، وانه لحدثه عنها حديث الرائي الشاهد. فاذا الكبير على الفه؛ يرى بعين الأكبر، يستشف مافي روحه، ويجد في قلبه صورة ما تنطوي عليه جوانحه، فيؤمن معه أو يؤمن به؛ واذا حياتهما قد صارت إيماناً، حار الأنفاس، ملتهب الاحساس، متصل الأسباب بالحق الأعظم، فزاد ما بينهما قرباً أو اتحادا، وصارت صداقتهما على ما اشتهى الواثقون بطهر الانسانية ومعنوية الحياة؛ اذا ما قال الأكبر أنت أحب الرجال الى، قال الكبير أنت الى أحب الناس

— ٤ —

اضطلع الأكبر بعبئه أمام الدهر؛ وخرج يدفع الانسانية دفعاً، ويدير الحياة في غير مدارها، ويخط مستقبل التاريخ، وما أشق وأهول!

اذا ما أقبل النهار ، وارتفعت الشمس ، خرج يرى لنفسه ، طف لأمره ، بين بدو همل هائمين ، وعتاة فيهم مأفونين ، يهم أنه قد حل اللغز الأعقد ، وظفر بالمجد الأوحد ، اتصل الله بسبب ، ووقف من السماء بمنال ، ويهجو آلهتهم ، ويسفه لامهم . . فأى سخرية يلقى ، وأى عناء يواجه ، وبأى نقيصة ف ... هو كاهن ، وساحر ، وشاعر ، ومجنون ، وممسوس ، كذاب و و . . .

فاذا ما كاد يبخع نفسه أن لم يؤمنوا ؛ واذا ما ذهبت نفسه سرات عليهم ، تلفت فاذا صورة نفسه قائم الى جانبه ، يواسيه رفه عنه ، يمسح عن قلبه أوضار الألم ، وقذائف التهم ، حين لب لجروح قد أسالتها أحجار المفترين وقذائف السفهاء معولين عليه ، وما زال كذلك حتى يسلمه فى الليل الى تلك زوجة الأمينة الرزينة ، التى فهمت عنه حين جهله الناس ، اطمأنت اليه حين أنكره الناس . . فهو منهما فى ألفة وطمأنينة . النفس بالصديق ، آنس منها بالمشيق . .

وكانت احن ومحن طالت بضعة عشر عاماً ، فقد فيها الأكبر تلك الزوج ، فكان نهاره وليله لصديقه الصدوق ، وعنده انتهت مؤانسته ، حين كان الهم يزداد والعناء يشتد

وخشى القوم خطر تلك الدعوة الدائبة ، وهاتيك المهاجمة المصابرة ، فزادوها قسوة وتنكيلا ، وأشبعوا من نصرها ألماً وتعذيبا ، فاذا الصديق يفى لأنصار صديقه وفاءه له : يجد فى انقاذهم ، ويسعى فى تحريرهم ، باذلاً فى ذلك ما ادخر وأثل ؛ فاذا عتقاؤه منهم سبعة نفر . . . ولقد أدركت ولا مراء ، أنه لن يكون الا الأعز . . . أبا بكر

— ٥ —

هذان هما ، قد نبا بهما المقر ، وأجمع الناس كيدهم ، فهو الموت والدم بدد ، والثأر ضائع ؛ لكن الصديق أبداً مخلص ، هو ظله حيث سار وردؤه فيما يرى لنفسه ؛ وعفاء على الأهل والمال والولد والوطن ، يخليها جميعاً ويخرج من الدنيا بصديقه . . . الى التيه ، الى الشرود ، الى المغامرات ، الى الكهوف والغيران ، الى الجوع والعذاب ، الى الدرك والمحاق ، الى الموت ، الى كل كريهة ، ماهى الا المحببة حين يريدها الصديق . وما أجله وأنبله حين أنزله الغار فلم يخف ، وحسبك أنه انما يقول له : « لا تحزن ان الله معنا » ؛ وما ظنك باثنين الله ثالثهما . . أجل لقد كانا كذلك انفراداً فى الغار ، كما كانا انفراداً فى صداقة وولاء ووفاء

— ٦ —

رافقه الى مأمنه ؛ ولازمه فى مهاجره ، وتنفست الدنيا ، وانبلج صبح الفوز ، فظل له كما كان يوم عرفه قبل مبعثه ، يبذل له قواه وروحه ، كما يبذل له اخلاصه وبره ؛ يحمل اليه فلذة كبده ، يضعها فى حجره ، فتكون رسالة من قلب الى قلب . وتمسى فى النساء قرة عينه كما كان فى الرجال أبوهاله ؛ يبذل له ماله ، وما المال فى ذلك كله ؟ وأى شىء أربعون ألف درهم خرج من دنياه لا يعرف منها مكان درهم ؟ يلازمه فى حربه وسلمه ، وصحته ومرضه ، حتى تأذن الله له بالنصر ، وأتم الرسول عليه السلام ما ندب له من حادث فى مسير الدنيا ، ومستقبل الكون ؛ فاذا ذلك كله فى التاريخ يعرف بد تلك الصداقة

— ٧ —

وخرج الرسول عليه السلام من دنياه ، فتصدع الأساس ، وانشعب الأمر ؛ ارتدت الجزيرة ، واضطرب الباقون فى قمع الخارجين . . . لكن الصديق النبيل الجليل قائم ، يصل من وراء القبر روح صديقه ، ويحسه قائماً الى جانبه ، فاذا هو جيش وحده ، واذا هو أمة وحده ، واذا هو الاسلام كله حين يقول لهم جميعاً : أيها الناس ! لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده ، حتى أبلغ من نفسى عذرا أو أقتل مقتلاً . . . فسارع الكل وظفر الاسلام

قرت الدولة ، وانبسط السلطان ، وأينعت الحضارة ، وسعدت الانسانية ، وشهد التاريخ ، فاذا ذلك كله يعرف ولا غرو دين تلك الصداقة

— ٨ —

بنى الشرق ! ان السيوف قد استحالت فى أيدينا خشبا . والمدافع قد أمست مواقيت للطعام وتلاهى للأعياد ، والجو من فوقنا ، والأرض من تحتنا ، والبحر من حولنا ، ليس من ذلك شىء لنا ، لكننا ولا غرو نحتاز نفوسا ، ونملك قلوباً موصولة السبب بتلك القلوب ، فلو عرفت الايمان لمشقت المجد ، ولو أحست الوفاء لنالت أسباب السماء ، ولو وجدت مس تلك الصداقة لنصرت دينا ، وبنت دولة ، ودانت التاريخ . . .

فهل تذكرون ؟

أمين الخولى